MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index

ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)

مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية

ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية والحضارية

م.د عبد الرحمن عباس ادعين

كلية القانون – جامعة المستقبل – الحلة – بابل – 51001 / العراق

استلام البحث:22-08-2024 مراجعة البحث :24-09-2024 قبول البحث:17-11-2024

الملخص

ابن خلدون، رائد في مجال الفكر الاجتماعي والتاريخي، أرسى أسساً علمية لفهم الظواهر الاجتماعية والتاريخية. في مقدمته الشهيرة، قدّم رؤية منهجية لتحليل التاريخ من خلال استقراء الأسباب والنتائج بعيداً عن السرد التقليدي. ارتكزت فلسفته على مفهوم "العصبية"، الذي يشرح ديناميكيات نشوء الدول وسقوطها ودور التضامن الاجتماعي في بناء الحضارات.

يرى ابن خلدون أن الحضارات تمر بمراحل نمو وازدهار ثم تدهور، وأن العوامل الاقتصادية والسياسية تلعب دوراً رئيسياً في هذه الدورة. كما شدد على أهمية التحقق من صحة الروايات التاريخية باستخدام منهج نقدي يقوم على تحليل المصادر ومقارنتها. رفض التفسيرات المبنية على الخرافات، واعتمد العقل والتجربة كأساس لفهم الظواهر.

إسهاماته شكلت الأساس لعلم الاجتماع الحديث، حيث وضع قواعد لدراسة المجتمع وتحليل علاقاته الداخلية والخارجية. رؤيته العلمية للتاريخ والمجتمع جعلت منه مرجعاً مهماً للباحثين عبر العصور، مؤكداً على أهمية المنهج العلمي في تفسير الظواهر الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون، الفكر الاجتماعي، التكوين الفكري

Abstract:

Ibn Khaldun, a pioneer in the field of social and historical thought, laid the foundations for understanding social and historical phenomena. In his famous introduction, he saw the necessity of analyzing history through extrapolating the readers of the structure and results towards the traditional narrative. His philosophy was based on the concept of "asabiyya", which explains the dynamics of the rise and fall of states for social solidarity in building civilizations.

Ibn Khaldun believes that civilizations go through stages of growth and prosperity and then decline, and that economic and political factors play a fundamental role in this period. It is also necessary to verify the validity of historical narratives using a critical approach based on analysis and accuracy. He rejected interpretations based on superstitions, and relied on human forces and experience as a basis for understanding phenomena.

Its determinants form the basis of modern sociology, where the requirements of society are determined to analyze its internal relations. Therefore, the scientific reason for history, and its formation is an important reference for researchers throughout the ages, emphasizing the scientific roles in explaining human phenomena.

Keywords: Ibn Khaldun, social thought, intellectual formation

المقدمة

مثلت اراء ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية والحضارية ابداعا فريدا من نوعه , اهتم بدراسته العلماء والمفكرين والمؤرخين , وكان الواقع الذي عاش فيه , ابن خلدون له ابلغ الاثر في تكوينه الفكري والنفسي وتحديد نظراته الواقعية والموضوعية الى الكون والانسان والمجتمع بكافة جوانبه , وكان ابن خلدون صاحب نظره واقعية وعلمية في تحليل الاحداث وربطها ببعضها بعيدا , عن التقليد والمحاكاة والنقل الحرفي , وبهذا اختلف عن الفلاسفة المسلمين في منهجه الفلسفي برد الحوادث الى ظروفها وعللها الطبيعية , لقد تناول البحث بيان حياته والظروف المؤثرة فيه , والتعرف على احداث عصره , وعاش بعض من حياته بالقرب من الامراء والملوك وبين القبائل .

اهمية البحث

تكمن اهمية البحث في قوانين علم الاجتماع التي اكتشفها ابن خلدون وفهمه للتاريخ كعلم من العلوم الانسانية واستطاع رد الحوادث الى ظروفها وعللها الطبيعية بعد ان جعل المجتمع الانساني عامة والمجتمع العربي الاسلامي خاصة مادة خاصبة لتأمله ودراساته، ونحن احوج ما نكون اليه اليوم

منهجية البحث

ان طبيعة البحث في الموضوعات الانسانية فرضت علينا الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي الذي عماده وصف النصوص كما هي ثم تحليلها على اسس منطقية لاستنباط الاحكام والنظريات الاجتماعية والحضارية من خلال الاستشهاد بالوقائع والاحداث

خطة البحث

ومن اجل الاحاطة بالأفكار الاساسية لموضوع البحث وابراز اطاره العام، تم تناول البحث وفق خطة مؤلفة من مقدمة ومبحثين وخاتمة صوت اهم النتائج والتوصيات وكانت الخطة على النحو الاتي:

المبحث الاول

حياته ومنهجه الفلسفي

حياة ابن خلدون ومنهجه الفلسفي تمثل ركنا مهما من منهجه الفكري، في دراسة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، واستيعاب القوانين الحاكمة في ذلك الواقع، ومن اجل الاحاطة بما يمكن قسمنا هذا المبحث الى مطلبين تناولنا في المطلب الاول حياة ان خلدون والعوامل المؤثرة فيها، وفي المطلب الثاني منهجه الفلسفي في فهم الواقع الاجتماعي من خلال فهمه للتاريخ

المطلب الاول

حياة ابن خلدون

ولد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون في تونس سنة 732هـ وتوفي في القاهرة سنة 808هـ وهو من بيت علم وشرف، وهو الفيلسوف والمؤرخ والعالم الاجتماعي البحاثة أصله من اشبيليه ومولده ومنشأه في تونس، رحل الى فاس وغرناطة وتلمسان

والاندلس وتولى اعمالا واعترضته دسائس ووشايات، وعاد الى تونس، ثم توجه الى مصر فأكرمه سلطانها (الظاهر برقوق)، وولي فيها قضاء المالكية ولم يتزيا بزي

القضاة وبقي محتفظا بزي بلاده , وعزل واعيد وتوفي فجأة في القاهرة سنة (808هـ)[1] كان فصيحا جميل الصورة , عاقلا صادق اللهجة , طامحا للمراتب العليا اشتهر بكتابة (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) في سبعة مجلدات اولها المقدمة وهي تعد من اصول علم الاجتماع , وكانت تونس في ذلك الحين مركز العلماء ومقصد الادباء , وقد قدره ان يتتلمذ على ايدي عدد كبير من الفقهاء والعلماء وبالأخص علماء اللغة والادب , وكانت دراسته مبكرة على يد والده الذي كان متقدما في اللغة العربية بصيرا في الشعر وفي الحقيقة لم يكن بين اولئك الشيوخ الذين اخذ عنهم واشبع نهمه من علمهم اكثر تأثيرا من (ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي) المتميز بعلمه واسلوبه في التفكير الذي يصفه ابن خلدون في التعريف بانه شيخ العلوم العقلية[2] كما يصفه في اللباب بانه الامام الاكبر والعالم العلامة فخر الدين والدنيا ومبدأ المعارف وخاتمها , الفت العلوم بزمنه بيده وقل ان يكون هذا الاحد من بعده , يقول ابن خلدون لم ازل منذ نشأت وناهزت منكبا , على تحصيل العلم حريصا

على اقتناء الفضائل متنقلا بين درس العلم وحلقاته[3] لإشباع نهمة العلمي وحين تعرف على احداث عصره ودرس على علمائه واحتك بهم وتفاعل معهم , وعاش بعض من حياته على مقربه من الامراء والملوك , كما قضى بعضا من حياته بين مختلف القبائل وتعرف على اسلوب معيشتها وفهم واستوعب جميع مشاكلها , بعد ان جعل عقله اشبه بعدسة مصور يلتقط الصور من كل جانب ويختزنها في ذاكرته , ثم يؤلف منها نظرياته واراءه العلمية بطريقة ابداعية فريدة من نوعها كان لها ابلغ الاثر في تكوينه الفكري والنفسي وتحديد نظراته الواقعية الموضوعية الى الكون والانسان والمجتمع بكافة جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية على ضوء فهمه [4] علما ان لكل عصر قيمه وعاداته وتقاليده وطرائقه واساليب الحياة السائدة فيه التي تحدد ملامح حضارة هذا العصر والتي يعكس الانتاج الفكري لمثقفيه وعلمائه , كما يعكس هذا الانتاج الفكري صور وملامح الحضارة والعصر التي ينتمي اليها فهو ايضا يتأثر بها لهذا ترتبط عمليه استيعاب وفهم الانجاز العلمي والفكري للعلامة (ابن خلدون) بالتعرف على ظروف عصره وملامحه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية , التي اضافت لفهمه بعدا شاملا للواقع المعاشر[5]

([1]) الزركلي , خير الدين بن محمود , الاعلام , ط, 15 , 2002 , دار العلم للملايين , 330/3

([2]) ابن خلدون , عبدالرحمن , التعريف بان خلدون ورحلته غربا وشرقا , ط, 1979 , دار الكتاب اللبناني بيروت , ص340

([3]) ابن خلدون , لباب المحصل في اصول الدين , ص2/1

([4]) محمد عبدالرحمن مرحبا , الموجز في تاريخ العلوم عند العرب , ص135

([5]) محمد الجوهري , محسن يوسف , ابن خلدون انجاز فكري متجدد , ط, 2008 , مكتبة الاسكندرية , ص20

المطلب الثاني

منهجه الفلسفي

كان ابن خلدون صاحب نظره واقعيه علمية في تحليل الاحداث , وربطها بعضها ببعض من غير الاعتماد على التقليد والمحاكاة والنقل الحرفي , وهو بهذا يختلف عن الفلاسفة الاخرين من المسلمين لذلك العصر فقد جاءت ابحاثه ودراساته جديدة ومتطورة اصيله كل الأصالة , بعد ان تأكد لدينا انه صاحب موقف فلسفي علمي اخلاقي في الواقع المعاش محصن بمنطق علمي وموضوعية علمية واضحة الرؤيا , استطاع من خلالها رد الحوادث الى ظروفها وعللها الطبيعية بعد ان جعل المجتمع الانساني عامة والمجتمع العربي الإسلامي خاصة , مادة لتأمله ودراسته حريصا على تتبع نشاط المجتمع بالدرس والتحليل المتأني في جميع مراحل تطوره بهدف اكتشاف القوانين الحاكمة لحركة التطور والعمران(6) ويرى ابن خلدون ان المعرفة يجب المعنية لديه , يجب فسح المجال امامها واسعا هي تلك المعرفة التي تخضع للتجربة , والبرهان وتصل الى اليقين عن طريق المنهج العلمي الذي يعتمده , اي ان المعرفة يجب ان تكون مستمده مما هو محسوس ولاصقة به , اما اذا كثر فيها التجريد والبعد عن الواقع المحسوس كانت غير مأمونه العواقب , وكان ابن خلدون يتبع منهجا تجريبيا واقعيا في كل دراساته , حيث كان يستخدم المنهج العلمي والوضعي الذي يعتمد كليا على الواقع والمشاهدة والتفكير المنظم الذي يضع الفروض ويستخلص القواعد , فالنزعة التي يتبع بها تفكيره هي نزعة تجريبية ذات امتداد تاريخي حضاري , فهو يؤكد ان التجربة وفحص الحقائق الجزئية واستقراء الحوادث الشخصية وتأمل الظواهر الكونية مباشرة عن طريق العقل والحواس ذلك يمثل عنده الدعامة الاساس التي يقوم عليها العلم بحقائق الاشياء(7)

ويرى ابن خلدون ان العقل البشري عقل شخصي قاصر عن الاحاطة حتى بالوجود المحسوس احاطة كاملة فكيف به اذا اراد الذهاب الى ما وراء الوجود المحسوس , اي عالم الغيب فلا يجوز اذن الادعاء بأن العقل البشري قادر على الاحاطة بكل شيء ومعرفته بشكل دقيق , وهكذا نجد ابن خلدون يرى ان اليقين العقلي لا يتم الا بالمشاهد والرجوع الى الموجودات الخارجية في الطبيعة , اي ان العقل عند ابن خلدون موثوق به مادام مرتكزا على الحس والتجربة العملية وان قضاياه ان لم تكن مرتكزه على هذا الاساس الصلب فأنها غالبا ما تكون غير صحيحة فلابد اذن من الاتصال دائما بالموجودات اليقينة التي تقع تحت الحس والادراك , ولابد اذن من عدم ارتكاز العقل على حدود الاقيسة الذهنية العقلية المجردة لأنه لن يصل في مثل هذه الحالة الى اي يقين علمي , ثم يقرر ابن خلدون انه مادام العقل مشروطا بالتجربة العملية وميدانه محدودا بنطاقها فأن اي مسالة يقررها في ميدان ما وراء الحس تكون تخمينا محضا لأنها تقع خارج اختصاصه وامكانيات قدراته وكان ابن خلدون منطلقا في موقفه هذا من فلسفته الانسانية والعلمية التي حدد من خلالها ميدان المعرفة البشرية ونسبتها(8)

---

(6) قيس هادي احمد , ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع , مجله المورد , العدد الثالث لسنة 2006 , تصدر عن وزارة الثقافة , دائرة الشؤون الثقافية العامة ,ص51-56

(7) عبدالرحمن ابن خلدون , المقدمة , دار البيان بلا تاريخ , ص392

(8) ابن خلدون , المقدمة , ص292

اذن ابن خلدون يركز على العقل والمعرفة العقلية الايجابية المبنية على التجربة العملية ويعارض عالم التجريد (الفوق عقلي) بكل اشكاله ويسمي عالم الانسان (عالم الافعال المنظمة) لانه استطاع ان يربط الاسباب بالمسببات , وهذا الربط يقود في النهاية الى العقل بهذا تسيطر افعال البشر على عالم الحوادث , فتكون طوع بنان الانسان وفي خدمته , ان ابن خلدون عندما اغلق الباب امام البحث العقلي في ما وراء الطبيعة , كان يريد في الوقت نفسه العمل على توسيع دائرة عمل وفعل العقل في ميدان الطبيعة , وهكذا فسر ابن خلدون سبب فشل الفلسفة في بحث الوجود , بما هو موجود وبصورة مطلقة كلية وذلك لا يعني اخفاقا للعقل او استحالة الحصول على العلم , بل يعني حسب ان المهمة كانت فوق العقل البشري وتتعدى قدراته وامكاناته وتتجاوز حدوده وصلاحياته وميدانه , وعليه وجد ابن خلدون ان المهمة الحقيقية للفكر الفلسفي هي محاولة البحث فيما هو موجود ومحسوس وقابل للمعرفة وما هو معاش يوميا , وقابل للملاحظة والتجربة , وبهذا انزل ابن خلدون الفلسفة من سماء العقول الفلكية المجردة الى ارض الواقع الحيوي , وارض الانسان والمجتمع الانساني والحضاري , والتعامل مع الواقع[9]

لقد صارت المرونه الذهنية والتفكير المنطقي عند ابن خلدون اسلوبا ذهنيا فقد اثار مبدأ (التجويز) بقوله (ان الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات اومن الافعال البشرية اوالحيوانية فلا بدلها من اسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونها) , حتى ابن خلدون كان ينظر الى الخوارق وحدوثها نظرة غير واثقة بقوله (ان الخوارق تحدث في زمن النبي فقط اما بعد ذلك فقد ذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة , كما كان ابان القوانين الطبيعية مطرده في مجال الطبيعة والقوانين الاجتماعية مطردة في مجال العمران , ان ابن خلدون بطرحه السببية كان يهدف الى وضع مفاهيم علمية بديله تحرر العقل العربي من سلطة اللفظة وتدربه على الاستقراء والاستنتاج , والكليات والمقاصد والبحث , في روح النصوص , وهي مفاهيم تشكل مع مبدأ السببية بنية عقليه هي غير البنية العقلية السابقة) [10] وبهذا لا يعد ابن خلدون الكرامات عند الاولياء حقيقية ولا يضعها في مجال الادراك العلمي السليم , وانما هي عنده اقرب الى الحالات النفسية الخاصة التي لا يشعر بها الا الفرد الذي يمر بمثل هذه الحالات , ولا يمكن ان ترقى الى مستوى التصورات الذهنية الواقعية , وكذلك رفض ابن خلدون المعرفة الفلسفية (الميتافيزيقية) فهي ايضا من هذا القبيل , واعتبرها انها معرفة قاصرة عن الادراك الحسي , ولذلك فلا ايمان بها معرفة لأنها ظنية لا تغني شيئا لاعتمادها على التصورات الذهنية والتخمين المجرد , والذي يخلص اليه ان النتائج التي تصل اليها فلسفة ما وراء الطبيعة انما تتم بواسطة اقيسة عقلية لا تلتفت الى الواقع ولهذا فأنها لا يمكن ان تقطع بيقين علمي عملي لأنها تقيم بناء عقليا مجردا بعيدا عن الواقع العملي التجريبي , واخيرا يرى ان القوانين الكلية التي تتوصل اليها تلك الاقيسة لا تكون مطابقة للجزئيات التي كان تشخيصها مفترضا[11] فالخبر عند ابن خلدون خاضع للتدقيق والتقليب , فاذا كان ممتنعا ينظر به جيدا , اما اذا كان مستحيلا فلا فائدة من النظر فيه وقد عد اهل النظر في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل فالقانون عنده يعتمد على الامكان والاستحالة وان ينظر في الاجتماع الانساني الذي هو العمران البشري ويميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه , وما في الاخبار من الصدق والكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه[12]

([9]) عبدالمنعم حماده , من رواد الفلسفة الاسلامية , ط, 1973 , الانجلو مصرية , القاهرة , ص281

([10]) محمد عابد الجابري , بنية العقل العربي , ط2, 1978 , مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت ,ص550

([11]) محمد عبدالرحمن مرحبا , مصدر سابق , ص177

([12]) الجابري , مصدر سابق , ص550

لقد اراد صاحب المقدمة ان يرتفع بفن التاريخ من مجرد سرد اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاولى وتنمو فيها الاقوال وتضرب بها الامثال الى عمل علمي قوامه (نظر وتحقيق وتعليل للكائنات دقيق ومبادئها وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق وبذلك يتجدد وضعه ومنزلته بانه أصيل في الحكمة عريق , وجدير بأن يعد في علومها وخليق)[13] ويعد ابن خلدون من الذين هاجموا الخرافة وانتشارها عند المؤرخين وكان عصره زاخرا بعلوم التنجيم والسحر والطلسمات بحيث دخلت هذه العلوم على المله واهلها بما جنحوا اليها وقلدوا اراءها وان هذه المظاهر السحرية قد ناضل الدين الاسلامي الحنيف ضدها نضالا ماجدا[14] وقد تناول ابن خلدون ومنهجيته الناقدة باحث معاصر اخر واصفا اياها : (بأنه ذو عقل كبير طموح لأنه اراد ان يجعل من التاريخ علما مؤسسا على البرهان , لان في تأسيس التاريخ على البرهانية الصالحه للتطبيق تعد منطلقا جديدا خاصا في فهم حركة التاريخ وثانيا اراد ان يوظف هذا المنطق الجديد توظيفا يثقل التاريخ فعلا من ميدان اللاعلم الى مستوى العلم وقد انجز الخطوة الاولى , وهو قد نجح في اكتشاف علم جديد بصلح ان يكون معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريقهم الى الصدق والصواب فيما يتقلونه من اخبار ووقائع , لقد كان جادا وراغبا بتأسيس البيان على البرهان) [15] واشار كاتب ومفكر معاصر اخر الى قدره ابن خلدون المتميزة في بحث العلل والاسباب بقوله (لقد وضع فكر ابن خلدون حدا لحالة الانحطاط الحضاري والفكري وذلك بفضل وعيه لحالة ذلك الانحطاط وبحثه بحثا عليا وعلميا عن الاسباب الواقعية المشخصة لها ويعد ابن خلدون مثل يقطه فكرية رائدة حتى اصبحت هما لدى جميع المفكرين الذي جاءوا بعده)[16]

المبحث الثاني

النقد التاريخي وجهل المؤرخين في علم الاجتماع

مثل النقد التاريخي محور اهتمام ابن خلدون معتمدا على المشاهدات والكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية، وانتقد المؤرخين الذين لا يفقهون واقع الحياة الاجتماعية والقوانين التي تحكمها، ومن اجل كشف هذه المحاور قسمنا هذا المبحث الى مطلبين تناولنا في المطلب الاول، النقد التاريخي وفي المطلب الثاني جهل المؤرخين في علم الاجتماع.

المطلب الاول

النقد التاريخي

كان ابن خلدون يدعو صراحه الى نقد التاريخ علميا وفق منهجية مبدعة , فقد وقف من المبالغات الاحصائية في كتب المؤرخين وابحاثهم موفقا بارعا بقوله[17]: (وقد تاه المؤرخون في بيداء الوهم والغلط خاصة في اعداد الاموال والعساكر اذا

([13]) ابن خلدون , المقدمة , ص351

([14]) فهمي جدعان , أسس التقدم عند مفكري الاسلام ط2, 1981 , المؤسسة العربية للدراسات ,ص73

([15]) الجابري , مصدر سابق , ص548

([16]) فهمي جدعان , مصدر سابق , ص9

([17]) عجيل نعيم جابر, دراسات منهجية في التراث الفكري ,ط, 2014 , المركز الثقافي للطباعه والنشر , بابل , ص86

عرضوا الحكايات والحكايات هي مظنة الكذب , ومطية الحذر , ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد , ومثل ذلك ما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين , في جيوش بني اسرائيل بأن موسى عليه السلام احصاهم في التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة ابن عشرين فما فوقها , فكانوا ستمائة الف او يزيدون , ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا العدد من الجيوش , فأن لكل مملكه من المماليك حصة من الحامية تتسع لها , وتقوم بوظائفها وتضييق عما فوقها , وتشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة , ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يعد ان يقع بينهما زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها , وبعدها عن بعض اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين او ثلاث او يزيد , فكيف يقتتل هذان الفريقان او تكون غلبة احد الصفين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الاخر , والحاضر يشهد بذلك فالماضي اشبه بالاتي من الماء بالماء)[18] وقد وقف ابن خلدون من النقد التاريخي موقفا خاصا بقوله : (فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللؤوم منجاة والجنى من الاخوان مرتجاة والله نسأل ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم) [19] وقد تناول ابن خلدون التاريخ عادا اياه فنا يخضع لقواعد العلم وقوانينه الطبيعة بقوله : (اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب , جم الفوائد, شريف الغاية , وهو محتاج الى مأخذ متعدده ومعارف متنوعة وحسن نظر يفضيان بصاحبهما الى الحق ويبعدانه عن المزلات والمغالط , لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل , ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة , وطبيعة العمران , والاحوال في الاجتماع الانساني , ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب , فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم , وكثيرا ما وقع المؤرخون , والمفسرون وائمة النقل في كثير من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا , ولم يعرضوها على اصولها , ولا قاسوها بأشيائها ولا سبروها بمعيار الحكمة , والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر , والبصيرة في الاخبار , فضلوا عن الحق وتاهو في ميدان الوهم والغلط)[20] وقد هداه تأمله في مؤلفات المؤرخين وما اندس فيها من حوادث غير صحيحة الى ان اسباب الكذب في الخبر غير الصحيح ترجع الى اربعة الاسباب هي:

1- امور ذاتيه راجعة الى المؤرخ ومدى انقياده الى هذه الميول والاهواء وتصديقه وما يصدر عنها ومن ذلك التشيعات والتقرب الى اهل التجله والمراتب بالثناء والمدح
2- الجهل بالقوانين وجهل المؤرخين بها فيسجلون اخبارا تحكم هذه القوانين باستحالة حدوثها فمن ذلك ما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدقه (الشياطين البحرية) في بناء الاسكندرية وكيف اتخذ من تلك الدواب البحرية التي راها وعمل تماثيلا لها من اجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان , فقرت تلك الدواب حينما خرجت وعاينت تلك الدواب المصنوعة على شاكلتها فتم له بناء الاسكندرية , وتلك حكاية خرافية ومستحيلة
3- المام المؤرخين بالعلوم الطبيعية وقوانينها واستبعاد كل ما يتنافى مع هذه القوانين، فلو كان المسعودي , واقعا على علم وظائف الاعضاء وقوانينه , وطبيعة النفس في الانسان والحيوان ما نقل هذا الخبر المستحيل الوقوع عن الاسكندر
4- جهالة المؤرخين في ظواهر علم الاجتماع الانساني وذلك لان ظواهر الاجتماع لا تسير حسب الاهواء والمصادفات , وانما تحكمها قوانين ثابته مطردة شأنها في ذلك شأن الظواهر الطبيعية[21] وفي هذا الصدد بقول

([18]) ابن خلدون , المقدمة , ص10

([19]) ابن خلدون , المصدر نفسه , ص7

([20]) ابن خلدون , المقدمة , ص9

([21]) علي عبد الواحد وافي , عبقريات ابن خلدون , ط, 1973م , عالم الكتب القاهرة , ص195

ابن خلدون : (ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار الجهل بطبائع الاحوال من العمران , فأن كل حادث لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احوال , فاذا كان السامع عارفا بذلك اعانه ذلك على مجرد النقل وتجنب العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصواب , وجهل المؤرخين بالقوانين العمرانية يدفعهم الى الزلل والبعد عن الصواب) [22] وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : (ان لا يلتفت الى خرافات العامة منهم , واننا لنرى بعض المؤرخين وقد افاضوا في الحديث عن العساكر وفي نفقات السلاطين , والمترفين , وبضائع الاغنياء والمؤسرين , وقد توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد , وطاوعوا وساوس الاغراب , والحقيقة ان النفوس تولع بالغرائب , وسهولة التجاوز على اللسان , والغفلة عن المتعقب) [23] ثم يكذب ابن خلدون رواية ان البربر من قبيلة حمير اليمانية , وان اليمن وجيوشها استطاعت ان تعبر الى المغرب وتحتلها معللا ذلك : (بأن المنافذ لا تسمح بتحرك هذا الجيش الكبير المحتل تلك المناطق والبقاع في المغرب . ثم ان هذه الجيوش عليها ان تمر بدول مستقرة تمنعها من العبور اذا ارادته , وان التاريخ لم يحدثنا عن حروب وقعت بين جيوش اليمن وجيوش الاقباط , والكنعانيين في الشام ولم يثبت التابعة حاربوا احد من هذه الامم , ولا ملكوا شيئا من تلك الاعمال , وايضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة , والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة , فاذا ساروا في غير اعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه[24] فاذا ارادوا نقل الازودة والعلوفة فلا تفي لهم الرواحل بنقله , فلا بد ان يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها , لتكون الميره فيها , واذا قلنا هذه العساكر تمر بتلك الدول من غير ان تهيجها فذلك اشد امتناعا لذلك فأن اكثر الاخبار واهية او موضوعه وقد ذهب الى مثل هذه الاخبار الطبري , والجرجاني , والمسعودي وابن الكلبي والبيهقي الى ان صنهاجه وكتامه من حمير وهذا غير صحيح) [25] ومن مظاهر تفكير ابن خلدون الناقدة انه لم يتخذ من اقوال من سبقه من المؤرخين متكا ومسندا بل انه قد بذل جهدا استثنائيا وفائقا لتخليص البحوث التاريخية من الاخبار الكاذبة , وكام مصرا على انشاء اداة يستطيع الباحثون بها في علم التاريخ ان يميزوا بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن ان يكون صادقا من الاخبار , وذلك مرتبط كله بشؤون الاجتماع الانساني لان ابن خلدون قد رائ ان كتب المؤرخين من قبله قد اشتملت على كثير من الاخبار غير الصحيحة , وان من الواجب ان يتخلص التاريخ من هذه الطائفة من الاخبار حتى تعطي صورة صادقة لاحوال الاجتماع الانساني[26]

المطلب الثاني

جهل المؤرخين في علم الاجتماع

سبق ابن خلدون (اوجست كونت) في وضع الاسس العلمية السليمه لعلم الاجتماع الحديث باربعة قرون ونصف، وذلك حين وضع المنهج التجريبي في دراسة العلوم الانسانية بصورة عامة، وعلم الاجتماع خاصة , وهذا كل ما فعله الاوربيون في عصرهم , الحديث ,(1600- 1900م)

([22]) ابن خلدون , المقدمة , ص10

([23]) المصدر نفسه , ص1

([24]) ابن خلدون , مصدر سابق , ص11

([25])المصدر نفسه , ص12

([26])علي عبدالواحد , مصدر سابق , ص193

حين اعتمدوا على المنهج ذاته الذي اعتمده ابن خلدون في محاولتهم فصل العلوم الانسانية عن الفلسفة لتصبح علوما قائمة بذاتها اسوة بالعلوم الطبيعية , لقد كان ابن خلدون بحق واضع علم الاجتماع بمعناه الحديث ومبدعه اول مره في تاريخ الفكر البشري , وقد اتجه في دراسته لهذا العلم منطلقا , كأي عالم تجريبي مما هو كائن لاممما ينبغي ان يكون , اي دراسة المجتمع وعاداته وتقاليده ونظمه من غير ان يضع فكرة سابقة لاصلاحه وارجع في كتابة المقدمة الظواهر الاجتماعية الى قوانين ثابته ولم يجعلها وليدة الاهواء والمصادفات اوارادة الافراد او القوى الخفية او غيرها اي انه قال بحتميه وقوع الظواهر الاجتماعية متى توفرت الظروف المناسبة لها , واطلق على هذا العلم اسم (علم العمران او الاجتماع البشري)[27]

فان ابن خلدون لم يرغب بقانون ثابت لان القانون وفكرته لم تتبلور في ذهنه وفي ايام عصره , ولكنه انصرف الى دراسة خصائص الاشياء وطبعها الخصائص الثابتة الملازمة لها دوما التي تشكل طبيعتها وقد كان يهدف الى الكشف عن حقيقة الصيرورة التاريخية والشروط التي تواجهها والعوامل الفاعلة فيها ويرى ابن خلدون ان للتاريخ حركة خفية متبدلة قد يذهل عنها الكثير من الناس , وذلك بان تبدل الاحوال يتم بتبدل الايام ومرور الاعصار , وهذا لا يقع الا بعد احقاب متطاولة تنتقل من حال الى حال , يكون في الاشخاص والاوقات والامصار , وكذلك يقع في الدول[28] ان ابن خلدون قد سار في وضع اجتماعي وسياسي دائم التغيير يقتضي منه براعة وليونه وسرعة , وقدره على التنوع لقد ساهمت حالة اللاستقرار في زمنه في تفتيح ذهنه على جميع ظاهرات الحياة السياسة والاجتماعية والاقتصادية , حتى ان هذا اوسيئ فهمه فيها وحسبت عليه بانه يحمل روحا انتهازية وسلوكا وصوليا , وفي حقيقة الامر ان عصر ابن خلدون كان عصرا عاصفا بالأحداث وقرنه كان من اشد القرون اضطرابا مما دفع ابن خلدون الى عدم الالتصاق بهوية حكم معين , وعدم الغرق في جزئيات دولة بعينها , ان يقظه التفكير تدفع احيانا الى تصرف عقلاني على الواقع وفي اطار هذا التصرف يتكون التصور العقلي للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي وفي الواقع كان تنقل ابن خلدون المستمر بين دول عديدة ومتشابهة سببا لكي يتحول الى مراقب سياسي واقتصادي ونفساني وتاريخي واجتماعي , وقد ادرك كيف يمارس الحكم وعلم ما يجري في بلاط السلاطين[29] وهذا ما كان ابن خلدون يأمله من المؤرخين ان يعوه كي لا يقعوا في الوهم والبعد عن الواقع وتبني المنهج الواقعي لفهم الوقائع والاحداث , لقد كان مشروع ابن خلدون الفكري منسجما مع الاخطار التي المت بالعالم الاسلامي من كافة نواحيه بحيث زعزعت القواعد النفسية والاجتماعية التي كان يرتكز عليها الاسلام نفسه , فأبن خلدون لم يكن مؤرخا عاديا , فقد ادرك اختلافه مع المؤرخين واحس بأصالته الشخصية , كما ادرك الفارق الكبير بينه وبين المؤرخين , وذلك بابتعاده عن نزعة النقل وهما وصدقا , وكان رائدا في ان يجعل التاريخ علما ذا مبادئ , اي قائما على بيان علل الاحداث والوقائع وقوانينها , وذلك بقوله : (ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الامس واليوم تنبهت عين البصيرة من سنة الغفلة والنوم , فأنشئت في التاريخ كتبا رفعت به احوال حجابا وفصلته في الاخبار والاعتبار , بابا واديت فيه الاولية الدول والعمران عللا واسبابا , فيعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنتزع من التقليد يدك, وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال)[30] وقد اشار ابن خلدون الى مثل هذه الفكرة , ثم طبقها على تاريخ الاسر المالكة والدول التي حكمت الاسلام وغيره , فكل اسره في نظر ابن خلدون صالحة في اول امرها وطالحة في الاخير وليس هناك اذن اسرة صالحا صلاحا مطلقا , وقد انتقد ابن خلدون المؤرخين الذين كانوا مبتلين بداء المفاضلة بين الاسر على اساس القيم المطلقة ,

---

([27]) قيس هادي احمد , مصدر سابق , ص51-56

([28]) فهمي جدعان , مصدر سابق , ص81

([29]) ملحم قربان , خلدونيات ط, 1984 , المؤسسة الجامعية للدراسات , بيروت , لبنان , ص208

([30]) ابن خلدون , المقدمة , ص50

فهؤلاء المؤرخين في نظره موسوسون خياليون لا يفقهون واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[31] وعكس كتاب ابن خلدون (العبر في ديوان المبتدأ والخبر) بجميع اجزائه وضع ابن خلدون في هذا العمل خلاصة تجاربه وبرز كمؤرخ فهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل الذي يتلخص في ان الحدث التاريخي اكبر من ان يكون حدثا سياسيا فقط بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية , وكذلك النفسية ايضا , وهذا مما دعا ابن خلدون الى الكلام عن مفهوم التاريخ على انه اشبه بمفهوم الحضارة اي جعله تاريخا للامم والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء وطبقات الاعيان , اي ان الشعوب وطبقات المجتمع هي التي تصنع الحدث التاريخي[32] وهذه النظرية التي بناها ابن خلدون كان من اسبابها اغلاط المؤرخين الفادحة لعدم فهمهم لقوانين حركة التاريخ فقد نأى ابن خلدون بكل طاقته الى لون جديد من التفكير , اخذا من الفلسفة بنظرتها العقلية , ومن التاريخ واقعيته , وكون منهما علما يمزج فيه التاريخ والفلسفة , مبتعدا عن الغيبيات حتى يكون التاريخ مجرد روايات وسرد اخبار وارجع نظريته الفكرية الى اسباب منها الكلية والعلية , فالتعليل عنده لا يكون تعليل الحدث الفردي الجزئي ولكنه تعليل جوهري شامل كامن خلف احداث التاريخ الظاهرة , وهو اقرب الى تعليل الاصوليين مثل قياس الغائب على الشاهد وقياس الاشياء والنظائر , والمتفق والمختلط والتعليل عنده ضروري , مما جعل نظريته تتصف بالحتمية[2]

الخاتمة

- لقد اوضح البحث المنهج الفلسفي عند بن خلدون لفهم حركة التاريخ والقوانين الطبيعية الحاكمة لذلك من خلال فهمه لواقع الحياة السياسي والاجتماعي والاقتصادي وكانت مقدمته المشهورة تعد من اصول علم الاجتماع وقد استطاع بعبقريته الثاقبة برد الحوادث الى ظروفها وعللها الطبيعية، وبعد ان جعل المجتمع الانساني عامة والمجتمع العربي الاسلامي خاصة مادة لدراسته وتأملاته,
- واعتمد المنهج العلمي بالمعرفة المستمدة مما هو محسوس والابتعاد عن التجريد قدر الامكان، معتمدا على المنهج التجريبي الواقعي، الذي عماده المشاهدة والتفكير المنظم الذي يضع الفروض ويستخلص القواعد
- كما اثبت ابن خلدون ان العقل البشري قاصر عن الاحاطة حتى بالوجود المحسوس، احاطة كاملة وعدم تجويزه بأن العقل البشري قادر على الاحاطة بكل شيء
- عارض عالم التجريد (الفوق عقلي) بكل اشكاله ودعا الى عالم الانسان (عالم الافعال المنظمة) لانه استطاع ان يربط الاسباب بالمسببات، وتحرير العقل العربي من التجريد

التوصيات

توصلنا من خلال الخوض في زوايا البحث الى التوصيات الاتية:

([31])علي الوردي , خوارق اللاشعور , د.ط, د.ت, دار ومكتبة دجلة والفرات , بغداد العراق , ص88

([32]) محمد الجوهري , محسن يوسف , مصدر سابق , ص20-26

(2) عجيل نعيم، مصدر سابق، ص104

1- عدم الاعتماد على التقليد والمحاكاة والنقل الحرفي ويجب على المؤرخ ان يكون صاحب موقف فلسفي علمي اخلاقي ومحصن بمنطق علمي ورؤيا علمية وموضوعية واضحه
2- دعا الى البحث الى اكتشاف القوانين الحاكمة لحركة التطور والعمران، عن طريق المنهج العلمي الذي يعتمده المؤرخ
3- على الباحث في علم التاريخ ان يتوصل الى اليقين العقلي الذي يتم بالمشاهده والرجوع الى الموجودات الخارجية في الطبيعة التي تقع تحت الحس والادراك، وعدم ارتكاز العقل على الاقيسة الذهنية العقلية المجردة
4- وعلى الفيلسوف ان يستخدم الفكر الفلسفي في البحث فيما هو موجود ومحسوس وقابل للمعرفة وما هو معاش يوميا، وقابل للملاحظة والتجربة
5- يدعو المؤرخين الى الابتعاد عن البناء العقلي المجرد والبعيد عن الواقع العملي التجريبي

المصادر

1- الزركلي، خير الدين بن محمود، الاعلام، ط15, 2002 , دار العلم للملايين
2- علي عبدالواحد وافي، عبقريات ابن خلدون، ط, 1973م , عالم الكتب القاهرة
3- علي الوردي، خوارق اللاشعور، د.ط, د.ت , دار ومكتبة دجلة والفرات , بغداد العراق
4- عبدالمنعم حماده، من رواد الفلسفة الاسلامية ط, 1973م , الانجلو مصرية , القاهرة
5- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار البيان بلا تاريخ
6- عبدالرحمن ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ط, 1979م , دار الكتاب اللبناني
7- عبد الرحمن ابن خلدون، لباب المحصل في اصول الدين
8- عجيل نعيم جابر، دراسات منهجية في التراث الفكري، ط, 2014 , المركز الثقافي للطباعة والنشر، بابل
9- فهمي جدعان، اسس التقدم عند مفكري الاسلام ط2, 1981 , المؤسسة العربية للدراسات
10- محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون انجاز فكري متجدد، ط, 2008 , مكتبة الاسكندرية
11- محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب
12- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي , ط2, 1978 , مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت
13- ملحم قربان , خلدونيات , ط, 1984 , المؤسسة الجامعية للدراسات , بيروت , لبنان

المجلات

1- قيس هادي احمد، ابن خلدون، او مؤسس علم الاجتماع، مجلة المورد العدد3 لسنة 2006 , وزارة الثقافة، دائرة الشؤون الثقافية العامة